وجع الرمال

عبد العزيز الراشدي

أعرف رجلا تدرّب قلبه على البداوة.لم يُعاند الصحراء فهو يعرف طبعها.حدث ذلك في البداية فقط.أعرفُهُ يمشي طوال الوقت، لا يتوقف.يُدرِّب قدميه وقلبه على السبل، وئيدا تختلج المسارات تحته، على غير هدى يخب في رمل الأرض، لا يركن لمكان لأن وجوده الأول علّمه أن البدوي الحق لا يستقر إلا حين يموت.هذا الرجل قد يتوقف.لكن إذا حصل الأمر ستفاجئه الحياة بسُمّها. في كل توقف وجع .والمسألة ليست أن نتغلب على مشاكل الحياة .المسألة ببساطة،أن ندرك قوانينها.

أعرفه يسير كما قُدِّر له، تُظلله الغيوم حينا ،والشمس كثيرا، ثم يتوقف فجأة، حين تعبر فوقه غيمة وحيدة وتسير .وقتها سيتساءل عما يفعل،عن الجدوى،ويدرك أن الحياة،هي المسافة بين مانريد وما نستطيع.هذا الرجل قد يموت بعد مدة قصيرة إذا ساد الالتباس.

الرجل أسمر.كما قُدّر لكل معاشري الشمس.يلبس أزرقا حائلا من الوجه حتى القدمين.اسمه لا يهم.ولايهم الزمن الذي ينتمي إليه.قد يكون من الحاضر أو الماضي.من بداية القرن أو وسطه.وقد ينتمي للمستقبل!.من قال أن للزمن معنى في الصحراء؟. أعرفه وأعرف وجهته ومبتغاه لكنني لن أقول كي لا يفتضح الأمر.

لن أقول أنه يخب في الرمل بحثا عن امرأة.المسألة أجدى بكثير. سوف أكذب إذا قلت أن الرجل يبحث عن مال أو تبر ،وسأكون مُفتَعَلا إذا قلت أنه يبحث عن فكرة. إنه يبحث وكفى.عن شيء غامض.بودي لو أحدد صفاته، لكن مهمتي الدفاع عن الالتباس. رجل تدّربتُ على كتابته طوال الليل لكنني لا أنتهي منه إلا لأبدأ من جديد.و لقد تدرّب بدوره على النيل مني. هل أقول إن حكايتي عن المشي وكفى؟إنها تسير وتُرهقني.

هذا الرجل قوّسَتِ الشمس والزمان حبال ظهره، غير مطمئن بالمرة لأن سم الحياة زعاف.قال له شيخ الزاوية التي مر بها في رحلته واستطعَمَ أهلها أن التيه ليس في الرمال والحر والريح.البدوي تائه على الدوام.التيه هنا في الداخل. وأشار إلى صدره.نحن التيه،وإذا لم تجد ظالتك في صدرك فلن.

هذا الرجل يسير محني الظهر، تدفعه الريح حين تكون إلى صفه، تعانده حين يتواجهان ،فيخرق صلابتها برأسه.الرمل يملأ عينيه، والزوابع موسيقى.تسكنه فكرة واحدة: الصحراء لم تعد صحراء.بتأفف تسكنه.رجل يخب في الصحراء باحثا.في الزوابع والحر .عن المعنى يبحث أم عن المبنى أم عن سراج يضيء القلب؟

سوف يسير،ثم يأنس نارا و يقصدها،يسلم على أهل الخيمة هذه المرة،يقودونه بعد الأكل إلى مضجعه،فيختلي مع الهواجس في الظلام.كان الليل طويلا والنجوم سهارى وجفونه لا تذوق ما تريد...

مستسلما لنشوة الظلمة، ولنشوة الراحة بعد التعب،كانوا يتكلمون. ما همه إن تحدث أصحاب الخيمة عن غيره، في خلوتهم، الهامُّ ركونه للراحة، لايهتم لهؤلاء الغرباء الذين توقف عندهم، طالبا حمايته من تعب البحث، فأذعنوا. لم يهتم لكلامهم ولا لحوارهم الذي بدأ الآن يصخب فلا تعود الأمور كما كانت، ستطفو المشاكل كالأوساخ على سطح ليلتهم هاته، يشاركون الطبيعة عنفها وهم ينحدرون جهة اصطخابهم، ينبشون حياة الآخرين فيعرون على

جروح لم تندمل.تصل أصواتهم مضجعه فيحس ألم ما يحصل.ساخنا،في إحساس الراحة، غير متواطئ مع تفاصيل حكاياتهم، لا يشكو تعبا في ثباته، ذاته عميقة جدا كما بحيرة، لايسقط .لا حاجة له للكلام.البدوي صاف لكنه لايبوح:قال قبل أن ينام ويحلم.

يمكن لليل أن يرخي السدول، يمكن لظلامه أن يسيل، فقد تعب الرجل.وحده في الليل الضارب .السماء قبة بعيدة والأرض أسود سرمدي.يمكن للصحراء أن تتخفى.المسافة تذوب ويظل الفراغ .اللاوجود. يمكن للضربان أن تفتح فمها في العراء لتأكل البرد.يمكن للريح الرملية الساخنة أن تهب حتى بالليل فهي لا تعرف موعدا.يُمكن لعيشة قنديشة أن تصل وقتما تشاء .عيشة الحاذقة في المكر. الطالعة من ليل كل الحكايات.المرأة التي تتلون في وجوه وملامح كثيرة لكنها لا تستطيع تغيير شكل رجليها.يا حُزنها.وصلت.كان تقف أمامه. أسنانها تكاد تبلغ الأرض،أذناها أذنا حمار.قالت : هل ترى أسناني؟ لكنه ظل واقفا كالعود الصلب، لايرشح قلبه خوفا ولا قلقا ولافوضى. لايذوب أمامها كالثلج في الصهد،لايرتّل الرجفة، ممتلئا رغم تعبه، ممتلئا بحسه البدوي القادر على تخطي العقبات، وقدرته على عيش أي احتمال.

ولم يرتجف الرجل ،لكنه كان يبحث عن سيفه فلم يجد .وتذكر ما كانت أمه تحكيه عن جد قديم أظهر لعيشة الغمد وقال: وأنت ألا ترين سيفي؟ ثم يفيق على صفير الريح .كان الفجر قد هلّ فواصل المسير مودعا أهل الدار بعد أن تمعن بأسف في الخيمة وأهلها باحثا عن المعنى.سار بعد أن أكد له حالهم جدوى بحثه. سار ينتابه الأمل،قد يجد ضالته.لكنه لم يجد في المدى المفتوح سوى غربانا طالما راودته، فاجأته والتفّت حول جيفة غزال. الغربان حوله تنعق ثم تستحيل مناجلا تعمل فيه .يُفيق ويدرك أنه نام ماشيا وأن كل ما حدث كان صدى لأحلامه.

المدى سراب، والجبل أمامه ينفتح على اتساعٍ مهول للفراغ ثم جبل .مُنحنيا ارتفع الرجل. امتدت أرض صهباء أمامه، خيام وأبنية،كان قد وصل ، كما لا ينبغي ربما، إلى مكان ما.

وأعرف هذه القرية ، أعرف أهلها.فاجأت الرجل ليلة فآنس نارا أخرى اتبع سبيلها ثم سلم على أهل القرية، فلم يستنبحهُ كلب بل رحبت عبر خباء الموارب عجوز طاعنة في كل شيء وقادته إلى فراش من الشعر الأسود واستفسر ته عن نوع المرأة الراغب فيها، فهدّه السؤال:

-هكذا أصبحتم أيها البدو بعد استقراركم؟لكنه أذعن. ليجرب على كل حال فقد يكون الباطن أجدى من الظاهر وقد يكون للكلام معنى غير المألوف.

جاءته القينة تتهادى يغطيها خمار، خلف سريرهما نضج الصمت لوقت طويل.ثم فتحت النافذة المغلقة ليمر القليل من الهواء النقي.

وتراقصت البدوية الغانية بغنج أمامه و كشفت عن الزين المسرار فتحطم قلبه، كانت أنثاه التي طالما حلم بها عذراءً.

كان قد أحس ذلا كبيرا.صداع الرأس يكاد يفنيه.غادر المكان ثم امتطى أعلى ثلة.أحس للمرة الأولى نقاء الهواء،وتوقفت هواجسه عن الجريان،كانت ذماغه الناشفة قد لانت وهدأت بفعل برودة مفاجئة،وتساءل لأول مرة بحزم:عم تبحث أيها المبحر في الصحراء؟ولماذا قال الشيخ أن التيه في الداخل؟هل ابن الماضي أنت أم ابن الحاضر؟من أي ثقب في الزمان وقعت؟هل تحلم أم أنت في صحوك؟ولم هذا الترتيب:البحث عن الحقيقة يواجهها سوط النميمة ثم المرأة التي تحطم القلب؟ كانت الأسئلة قد عذبته فقرفص أعلى الثلة.

وأعرف رجالا كُثُرا .خضر العيون شقر الوجوه.على وجوههم أثار النعمة رغم غلالة الغبار التي تغطيها.جاؤوا من شيكاغو أو نيوجيرسي يكسرون الرتابة و كانوا يسيرون . يصطادون الأرانب والغزال.كانوا قد غسلوا الأجساد بالبيرة،طبخوا لحم الغزال ،ثم أخمدوا النار بماءٍ غالٍ.تعاركوا حتى أدمت وجوههم،حدقوا في ملامح بعضهم بغضب في العتمة التي تسبق الفجر،عيونهم غائمة من سهرة البارحة.ضحكوا كثيرا وسبوا بعضهم بلكنة الروم ثم انصرفوا للصيد من جديد.كانوا قد ساروا عندما رأوا شبحا يتحرك و يقرفص أعلى التلة .ولأنهم فقدوا المرايا فقد تراهنوا حول جنس الغنيمة فقال بعضهم أنها غزال ورجح البعض أن يكون ضبيا.ولم يكونوا قد وصلوا إلى نتيجة عندما جهز أحدهم البندقية وصوّب.